تطهير الذات وتلويث الغير

<"xml encoding="UTF-8?>

سؤال حاضر وضاغط يراود من يداخل الناس ويحيط ببعض قضاياهم، لماذا يعمد الناس إلى تطهير أنفسهم من كل خطأ أو خلل أو تقصير، ويحاولون التبرؤ من هفوات أعمالهم، ومشاكل أسرهم، وخلافات شراكاتهم، وتقاعس مجتمعاتهم، ويبرعون في إلصاق كل شيء بالآخر؟ هذا الآخر الشريك في التجارة، والجزء من العائلة، والزميل في العمل، والفرد في المجتمع، لماذا يكون ضحية لهذا السلوك المعوج؟

الأسباب كثيرة لكن وكما أظن هناك سبب رئيس، وهو أن سمعة الناس هي الشيك المفتوح الذي يقدمونه في أعمالهم وعلاقاتهم ومشاريعهم، وبقدر ما يكون الرصيد من السمعة ضخما ومدونا في هذا الشيك فإن صاحبه أقدر على النفوذ إلى قلوب الآخرين، والتداخل معهم، والنجاح في حياته مع كل الدوائر التي يعمل فيها.

ولأن السمعة ليست شيكا ورقيا كي يمزق، ولا شيئا ماديا كي يحطم فإن الحل هو تدميرها السمعة، وإنهاء سياجها وحمايتها المعنوية، والطريق لذلك هو شيطنة الآخر واتهامه بكل تقصير أو خطأ أو هفوة، ويمكن في ضوء هدف تدمير السمعة أن يُكذب عليه أو يُفترى أو تُكيف الأمور والتصرفات، فتصرف عن حقيقتها وتُعطى صورا أخرى ووجها آخر. إن التركيز المتعمد وتسليط الضوء المقصود على هفوة هنا وزلة هناك يوجد اهتزازا في الثقة وتدهورا لحالة الاطمئنان في النفوس، وهذا ينعكس سلبا على الشخص أو الجهة المقصودة، وفي الطرف المقابل يظهر الطرف الآخر أعني من مارس دور التشهير والتلويث باعتباره البديل الأمثل والأسلم من ذلك الشخص الذي يتعرض للإسقاط والتشويه، خصوصا حين يكون سجل هذا الشخص أو الجهة يعاني من حيث تواضع الرصيد الذي يدفع به إلى المقدمة، والمعادلة المرسومة هي أن كل مصيبة أو كارثة هناك ستكون خيرا ونصرا هنا، والمثل المعروف حاضر لا يغيب عن البال مصائب قوم عند قوم فوائد.

أود الإشارة إلى أن السمعة الحسنة هي التي تمنع الناس من التطاول على بعضهم، لأنها انطباع في عقول الناس وقلوبهم، وهي رصيد تراكمي جمعته أحاسيسهم من مشاهدة وسماع وقرب ومباشرة لبعض القضايا والأمور، ورفع هذه السمعة يحتاج إلى مشاركة أعداد غفيرة من الناس، كي يكون هذا الكم العددي قادرا على الصمود

والمواجهة مقابل سنوات التراكم وتجارب الثبات والاستقامة. فإذا تجرأ أحد ونال من سمعة الآخر، ثم كرر الفعل، ووسع العدد، فقد كشف ظهره وأعطى فرصة لتوجه السهام إليه، وحينها تذب الجرأة حتى في الجبان فيكشف عن شجاعة عرجاء، وعنترية فارغة. لقد تعلمت أمرا أخاله مهما ومؤثرا في حياتي، وغالبا ما كنت أبوح به لأصدقائي، فكنت أقول للواحد منهم: إذا صادف أن رأيت أسدا تطعنه هرة، أو صقرا يفتك به عصفور، فما ذلك لشجاعة في الهرة ولا لقوة في العصفور، بل لأمر يحتاج لتأمل وتفكّر 1.

_____

1. صحيفة اليوم 28 / 5 / 2011م - العدد: 13854.